المقتطف

الجزء الاول من المجلد الخامس والستين

١ يونيو (حزيران) سنة ١٩٢٤ — الموافق ٢٨ شوال سنة ١٣٤٢

وردة اليازجي

[دعت جمعية الشابات المسيحية نابغتنا الآنسة « مي » لالقاء خطبة في ناديها فلبت الدعوة واختارت لخطبتها السيدة المرحومة وردة اليازجي ابنة الشاعر اللغوي الشهير الخالد الاثر الشيخ ناصيف اليازجي. ونابغتنا اقدر من كتب في نساء الشرق المتفوقات كما يتضح لكل من قرأ ما كتبته عن مدام ده سفنيه وباحثة البادية وعائشة عصمت تيمور فانها نظرت في آرائهن وعواطفهن وتزعاتهن بعين العلم والفلسفة والشعر والاجتماع والتاريخ واستخلصت من كل ذلك ما يحسن ان يكون نهجاً جديداً للنهضة الشرقية الجديدة. وقد ألقت هذه الخطبة في نادي جمعية الشابات المسيحية في ١٠ مايو فحضرها جم غفير من السيدات المصريات والسوريات والانكليزيات والاميركيات ومن الناظرات والمعلمات والطالبات في المدرسة السنية ومدرسة المعلمات ببولاق والمدرسة الاميركية وغيرها من مدارس الحكومة والمدارس الاهلية المهمة . وقوبلت الخطبة بحماسة عظيمة تدل على ان لها مثيل في مثل هذه الاجتماعات الأدبية ، وقد استغرق وقت الالقاء ساعة ونصف ساعة ، وتكلم بعدها بعض السيدات المصريات والسوريات بجملات متحمسات وطلبن ان تكرر مثل هذه الاجتماعات لسماع محاضرات كهذه — المقتطف]

***

أيتها السيدات والآنسات ،

أكادُ أشعر بأني معبّرة عن رأي كلّ منكنّ بتحبيذ هذه الاجتماعات النسائية والتنويه بالفائدة منها والنتيجة . لانّ المرء كثيراً ما يتجرّدُ من شخصيته الصميمة أمام من يختلف عنهُ بطبيعته واحواله، وذلك ليهتمّ بامور غريبة عنهُ وقد لا تروقهُ دائماً

وفي هذا التجرّد من الشخصية لاستيعاب ما هو غريبٌ عنّا غيرية ممدوحة توسّعُ النفس وتهيّئها للالمام بجزء اكبر من الحياة . ولكنّ من طبيعة الانسان — فرداً كان ، ام مجموعاً ، أم جنساً — ان يرجع إلى نفسه حيناً بعد حين . فيتعهّدها

بالسكوت والتأمّل ، أو يتحدّث عنها باسلوب من الاساليب ، أو هو يصغي إلى المتحدّثين عن نفوسهم أو عن نفوس الآخرين بما في وجدانه من الخوالج الواضحة أو المبهمة

ولمّا كنا في مثل هذا الاجتماع عاكفات على شؤوننا النسائية دون رقيب او محاسب تيسّر لنفوسنا ان تصفو من الشوائب فتستلم لما يجوز ان تسميه «مغناطيس الخير» . وما هو إلاّ ذلك الفيض الذي يغمر كلّ جمهور التأم لغرض نبيل . فيدفق في كلّ قلب وينعش منهُ القوى ، ويحملهُ على تقدير ممكناته وتقدير الحياة . فيعود القلب جذلاً كأنهُ وجد نفسهُ فهزّتهُ عواملُ العطف والصلاح والنشاط وحبّ السعي لغاية نافعة

وانّي لشاكرة لهذه الجمعية الكريمة دعوتها . ولكنت اشكرها الشكر ذاته لو هي دعتني اصغي الى احداكنّ بدلاً من التحدّث اليكنّ . فان كل امرأة مخلصة يسمعُ الشرقُ صوتها في هذه الايام انما تترجم عن بعض ما يخامر جميع الشرقيات . ويزيد في شكري ان يحوي هذا الاجتماع طائفتين من الطوائف التي تعلّق عليها البلاد أعزّ آمالها — أعني طائفة المعلمات وطائفة المتعلّمات

تساءل يوماً لورد بايرن الذي احتُفل اخيراً بيوبيله المئوي : « ما هو الشعر؟ » . ثم أجاب « هو الشعور بعالم مضى وعالم مقبل »

وهذه الكلمة من خير ما يُعرّف به طور التربية والتعليم . أي ان المنحني على النفوس الفتية يعالج إنماءها وصقلها لا بدّ لهُ ان يسبر غور الماضي ليكون على بصيرة مما يمكنهُ ان يعدّ للمستقبل من الشخصيات الصالحة

هي هذه الفكرة — وقد علمتُ ان هذا الاجتماع سيضم الناظرات والمعلمات والطالبات من مدارس الحكومة وغيرها — التي ساقتني الى الكلام عن وردة اليازجي ، وهي من اشهر النساء اللاتي عرفهنّ تاريخ الآداب العربية واذكاهنّ وافضلهنّ

(١)

لمحة في حياتها

يخيّل ان الهمة اليقظة والنشاط شاءت ان تتفقّد الشرق حوالي منتصف القرن الماضي فنشأت فئة من فضليات النساء على مقربةٍ من الرجال الذين قُدّر لهم ان

يكونوا عاملين في صرح الشرق الجديد . فولدت عائشة عصمت تيمور في مصر سنة ١٨٤٠ ،وولدت في تلك الاعوام بسوريا وردة الترك، ووردة كباء ولبيبة صدقة وغيرهنّ . وولدت زينب فوازصاحبة « الرسائل الزينبيّة » و «الدّر المنثور » في صيدا سنة ١٨٦٠ .وولدت في العام نفسه فاطمة عليّة ابنة المؤرخ التركي جودت باشا. وهي رغم كونها كتبت بالتركية فان لها الحقّ ان تُذكر بين أديبات العرب لأنها عرفت لغتهنّ ، وانتشر صيتها في أقطارهن ، وعاشت طويلاً في بلادهنّ التي جاءتها طفلةً في عامها الثالث يوم ان تولّى والدها ولاية حلب بعد ان كان وزيراً للعدلية في الدولة العثمانية .ويوم ولدت زينب فواز وفاطمة علية ، أي سنة ١٨٦٠ ،كانت وردة اليازجي في الثانية والعشرين من عمرها . لأنها ولدت سنة ١٨٣٨ هي ومريانا مرّاش الشاعرة الحلبيّة في عام واحد

تذكرنّ أيتها السيدات ، ان ذوي المواهب البارزة ينقسمون الى فريقين أوّلين ينقسم كل منهما بعدئذٍ إلى أجزاء صغيرة شتى : وهما الفريق الذي يشذ عن محيطه ويسبق جيلهُ بادراكه وفطنته وابتكاره . والفريق الذي هو ابن محيطه وابن يومه تتلخص عندهُ مدركات جماعته وعواطفها فيحدثهم عنها بلهجة بليغة قريبة المنال

والفريق الاول يكثر مناهضوهُ في الغالب فيظلّ منفيًّا في قومه ، غريباً في جماعته . إن هم أنالوهُ مرّةً ما فقد لا يضنون به وباكثر منهُ على من هو دونهُ ،فانهم يكفّرون عن ذلك بتعذيبه بعدئذٍ ووضع العراقيل في سبيله ما استطاعوا .ولا ينفك الحسد والعجز بهاجانه بالدسائس والوشايات والتحريف والتحامل والانتقاص، غير مغتفرين لهُ ما تفرّد به . فلائل هم أبناء هذا الفريق . ولكنهم رسل الالهام . بل هم المستقبل الذي يحيا في الحاضر ، ومنهم تنبثق الافكار الكبيرة والآراء النيرة ، وأياديهم هي التي تثير أنفس البذور ، وأصواتهم هي التي ترسل أجرأ الصيحات . فلا يثمر جهادهم إلاّ بعد وفاتهم يوم يشبّ النشء الجديد متوقداً يقظاً فيتلقف مبادئهم ويحققها شيئاً فشيئاً .واني لاضرب لكنّ مثلاً بواحدٍ من هؤلاء ، وهو قاسم امين الذي اضطهد في سبيل دعوته الى الاصلاح الاجتماعي . وتوفي ربع قرن تقريباً . فاذا بآراء قاسم أحيا اليوم منها في حياته . لقد أنضجها الدهر على مهل . فتناولها بعاتها الاصلية القويمة فئة من صفوة رجال الأمة وقبلتها

أما الفريق الآخر فيتكلم بلغة أبناء جيله ، ويعبر عن حاجتهم ، ويشعر بما به

يشعرون . فيكونون أقرب الى فهمه وأبعد عن مناهضته . لانهُ ثمرة هذا الوسط نشأ على ما كان ينبغي ان ينشأ ، وأظهر من شخصيته مثالاً كريماً ، وجاء باحسن ما يتنظرُ منهُ . وكأنَّ اهل هـذا الفريق هم الذين يغذون الجمهور بما يناسبهُ لينمو ، ويقودونهُ خطوة خطوة نحو مستقبل يصير عندهُ اهلاً ليدرك ما يريدهُ أهل الفريق الاوَّل — جماعة الشاذّين والخياليين والنظريين كما يسميهم «المصلحون» !

من أهل الفريق الثاني كانت وردة اليازجي . نشأت في اسرة يقوم على رأسها ذلك الاستاذ الكبير والدها الشيخ ناصيف الذي كان في طليعة العاملين لايقاظ الشرق الادنى من غفوته . وقد اقتفى أثرهُ في الفضل ولداهُ العالم اللغوي الشيخ ابراهيم ، والاديب الشاعر الشيخ خليل اليازجيان . فكانت هي باستعدادها الادبيّ وتوقد جنانها جديرةً بأن تكون ابنة هذا الوسط بالمعرفة والاجتهاد كما هي ابنتهُ بالدم والقربى

ولدت في قرية كفرشيما من ساحل لبنان . وانتقلت مع عائلتها طفلة الى بيروت حيث تعلمت في مدارس الامريكان الصغرى[1] وتلقت على سيدة يهودية متنصرة مبادىء اللغة الفرنساوية . ثم عني بها والدها فدرَّسها أصول اللغة في كتبهِ . وتوسَّم فيها استعداداً للشعر فرَّسها عليهِ بأن كان يراسلها نظماً عند تغيبهِ عن المدينة ، ويمهد اليها في الردّ على بعض مراسليهِ من الشعراء

فنظمت في الثالثة عشرة من عمرها وتعاطت التدريس مدةً في احدى المدارس الاهلية . وكانت في بيت والديها تساعد على الاعتناء بتربية اخواتها واخوتها الاثني عشر وهي رابعتهم . وظلت بعد زواجها ابنة وسطها وابنة يومها ، شرقية تلبس الطربوش ، وتأتزر عند الخروج من البيت ، وتشرب القهوة التركية على وقع تغير الماء المعطر في قلب الشيشة الفارسيّة ، وتنتسب لاسرة ابيها على الطريقة العربية

ولا علم لنا بتاريخ حياتها الفردية وهل هي كانت بها سعيدة أم غير سعيدة . ولا أثر لتلك الحياة الخاصّة في شعرها الذي لا يرسم إلاَّ الخطوط الظاهرة ، ولا يتكلَّم إلا عن الحوادث المألوفة من زواج وولادة وموت . وعندما استجوبتُ صورةً لها

(١) لم تكن « المدارس » ابنية في تلك الايام على ما قيل لي . وانما كان يجتمع التلاميذ والتلميذات تحت شجرة ستديان في الغالب فيتلقون دروسهم هناك

من صنع شقيقها الشيخ ابراهيم وهي في سنّ الحمسين — أشعر بوضوح انها كانت في طبيعتها أغنى منها في شعرها

ففي هذه الصورة الجاذبة ذات العينين العميقتين معان وأغوار لم تبدُ في قصائدها. وأرى في الشفتين المطبقتين بلطف وإحكام مصداقاً لما قيل لي انها كانت عليه من قوة الارادة والعزم والتروّي والتبصّر (١). حتى إذا شاءت ان تتكلم كانت من فصاحة النطق وبراعة الحديث بحيث يصمت شقيقها الشيخ ابراهيم تهيُّباً في حضرتها، فيكون لها الحديث ويكون لهُ الاصغاء. قد يرى الاشرار في هذا مجالاً جديداً للطامن في المرأة فيقولون إن الشاعرة كانت تتكلم بدافع حبّ جنسها للكلام، وان أخاها كان يسكت لأنهُ رجل . . . ولكن لا نتبيّن ان هذا رأي الاشرار. واننا نحن من الصالحين الذين يكتشفون الفضل في معدنه

وكان زوجها من أهل العلم كذلك فظلت تنظم بعد الزواج. واستخرجت من منظوماتها الكثيرة ديوان « حديقة الورد » الذي طبع أوّل مرّة في بيروت سنة ١٨٦٧ أي بعد زواجها بعام واحد. وأُعيد طبعهُ بعد عشرين سنة. ثم طبع مرةً ثالثة سنة ١٩١٤ في مطبعة هندية بمصر. وكانت تضيف إلى كلّ طبعة جديدة خير ما لظمتهُ في تلك الفترة، حتى استقرت الطبعة الثالثة على نحو مائة صفحة من القطع الكبير. وهي هذا الكتاب الذي ترين، أيتها السيدات

واني لأرجو السيدة نور الهدى (٢) ان لا تعاقبني هذه المرّة لأن كتابي ممزّق. اني شديدة الحرص على كتبي عادة. وما أصبحت « حديقة الورد » على هذه الحالة المهشمة إلا لاني اكثرت من معالجتها وتعذيبها في هذا الاسبوع إرضاء لسكنّ ياسيداتي. وأحرجني الوقت فلم يسمح لي بتجليد الكتاب

وكانت الشاعرة قد انتقلت بعد وفاة زوجها سنة ١٨٧٩ إلى الاسكندرية

---

(١) حبتني سيدة بعد المحاضرة وقالت انها تمت الى اسرة الشاعرة بأواصر النسب وتجمعها بها الصداقة الشخصية. ثم ايدت ما ذكرته عن اخلاق السيدة وردة بقولها انهم في عائلتها كانوا يستشيرونها في جميع الامور وقد اطلقوا عليها اسم « الشيخ محمود ». فما يختلفون على امر أو يكونون عندالبت في شأن الا ويقولون « هاتوا الشيخ محمود ابن الشيخ محمود يفض المشكل ؟

(٢) السيدة نور الهدى من خيرة المدرسات الثابات هي ناظرة مدرسة المعلمات الاميرية ببولاق وكانت في كرسي الرياسة. وقد مهدت للمحاضرة بخطبة جيلة ذكرت فيها السيدة وردة والاسرة اليازجية أجل ذكر. وشكرت هذه الفرصة التي اتيحت للكلام عنها

قصرفت فيها بقية حياتها مع ولدها الدكتور سليم شمعون من خيرة اطباء الثغر . ولها ابنة تدعى لبيبة يظهر انها نشرت بعض آثارها في الصحف ولكني لم أطلع على شيء من تلك الكتابات . وتوفيت الشاعرة في اوائل هذه السنة وهي في مطلع عامها السابع والثمانين . فذوى بها الغصن الاخير من الدوحة اليازجية الاثيلة

(٢)

ديوان « حديقة الورد »

يقول السيد جورج باز نسيب الشاعرة ناصر المرأة في سوريا ومن أخلص مناصريها في العالم ان « حديقة الورد » هو الديوان الوحيد الذي طُبع ثلاث مرّات لشاعر معاصر . وعلى كلٍّ فهو الأثر الواحد الباقي من آداب وردة اليازجي . ولا شك انها اقتبست اسمهُ من اسمها . كما يلوح ان اسم الورد المتواتر في كتابات الشعراء كان يذكرهُ بلذة أدباء عائلتها ولو انهم عنوا بهِ رمزاً غريباً . كأنهُ صار يخصّهم اكثر من غيرهم لاتصال شاعرتهم بهِ . ففي ديوان اخيها خليل المدعو « لمعات الاوراق » أبيات شجية عن الورد . هذا مثال منها :

ألا روّحوا روحي برائحة الوردِ فقد جاءنا فصل الربيع من البُعدِ
ألا متعوني مرة من شميمهِ فيذهب عني بعض ما بي من الوجدِ
. . . . . .
ولله ورد ليس يبرحُ ناضراً فلم يكُ مختصًّا بشهر لهُ فردِ (١)
أتوق اليهِ مثلما اشتاق ايّلٌ الى ما بهِ يروى ظماهُ من الوردِ
وأهفو لانفاس النسيم اذا أتى لنا من لدنهُ حاملاً أرج الندّ

كذلك نتخيّل ان ابن شقيقتها الشيخ نجيب الحداد متشبع من ذكرها عندما يترنم بذكر الورد في ديوان « تذكار الصبا » حيث يقول فيها يقول :

لشخصك من زهر الربى لقبُ الورد وهيهات ما للورد حسنك في الودّ
تفوقينهُ ريحاً ولوناً ومنظراً وبقياً على طول المودّة والعهد

(١) اي انه يزهر في كل شهر ولا يقصر على «مايو» الذي يدعوه الافرنج «شهر الورود»

فللورد شهر واحد ثم ينقضي ووردك باق لا يزول عن الخدّ

. . . . . .

فسبحان من انشاك شخصاً وقد حوى رياض جنان الخلد باسم من الورد

وقال شقيقها الشيخ ابرهيم في تقريظ ديوانها :

هذي حديقة ورد عزّ جانبها وحبذا روض ورد يُفرج الكُرَبا
من طافها برّ فيها الدرّ منتظماً والطيب منتشراً ، والسكر مختلبا
كالورد لضّده في روضهِ سحراً درُّ الندى ، أو كراح كللت حبيا
او بحر خمر بماء الورد ممتزج والجوهر الفرد فيهِ يملأُ العُبيا

وهي كما يظهر ابيات تقريظ للارضاء لا للتعبير عن رأي في المجموعة

ولقد دُعيت الوردة ملكة الزهور منذ اقدم العصور وتغنى بمدحها شعراء جميع الامم . فزعم الاغريق في اساطيرهم انها نشأت من قطرة من دم أدونيس حبيب الزهرة . او من قطرة كوثر تناثرت من يد الالهة يوم ولادة هذه الزهرة ، ربة الجمال . ورآها آخرون منوّرة من ابتسامة اله الحب ، او متساقطة من رأس الهة الفجر عند تسريح شعرها في الضحى

ومهما كثرت الرموز فالوردة ما زالت كما كانت دواماً زهرة الاحزان كما هي زهرة الافراح . ترمز الى الشباب والجمال والحبّ كما تستعمل في الزينة والارواح العطرية والادواء الطبية . وتتناسق منها الاكاليل ، اكاليل الوداع ، على قبور الاحباب وعروش الراحلين كما نراها جميعة ومفرّقة في حفلات الانس واللهو والطرب

وكذلك هي عند وردة اليازجي

فني حديقتها ورود باهتة في اللطف والمجاملة ، واخرى حمراء في المودّة والشوق ، والقسم الطامي هو ورود قاتمة . ورود الفراق والحداد . وورود الرثاء والنحيب المبللة بدموع العيون ، المضمخة بزفرات القلوب

(البقية للجزء التالي) (مي)